الواقع الافتراضي المُتحقق عبر التقنية الالكترونية وفعلهما التدميري في الذهنية العربية دراسة من منظور النقد الثقافي

م.د. محمد جري جاسم النداوي
المديرية العامة لتربية واسط
Muhammadalsaaub@gmail.com

الملخص:-

لقد أصبح الواقع الافتراضي المتحقق بفعل العولمة التي انتجتها القوى الكولونيالية بمساعدة وسائلها المتعددة التي اهمها التقنية الالكترونية لاسيما مواقع التواصل والميديا، واقعاً وحقيقة لا يمكن انكارها أو التغاضي عنها بأي شكل من الاشكال، لها عمقاً واتساعاً جعل منها حياة افتراضية لها القدرة على اشباع حاجات الفرد والجماعة، كونها قد تمكنت من تلبية طموحاته المحدودة ولو بشكل مؤقت أو افتراضي، فتكوينها المرئي يقوم على اسلوب التعبيرات الصورية المرئية، التي مكنتها من تصوير واقعاً افتراضياً موازياً للواقع المعيش بكل تفاصيله وحيثياته، ومن هنا تكمن خطورتها ويتحدد فعلها التدميري للفرد والجماعة، وكما سيتم بيانه في مفاصل هذه الدراسة التي اقتضت تسليط الضوء على ذلك كله من خلال ثلاثة مباحث، تناول المبحث الأول (ثقافة الصورة)، والمبحث الثاني تخصص في (الرموز التدميرية البديلة)، في حين تضمن المبحث الثالث (الفضاء الافتراضي المُدرَك).

Abstract:

Virtual reality has become an undeniable fact, after globalization has produced virtual reality through the colonial powers and with the help of its various means, most important of electronic technology, especially the sites of communication and media. This virtual life has been able to satisfy the aspirations of the individual and the community, Albeit temporarily or by default, because of its visual composition, which is based on the visual and visual expressions, Which helped to create a virtual reality that parallels the real reality in all its details. This made electronic technology, namely media, electronic media and media, more capable of arousing the attention of its recipients. As it contributes to the monitoring of the situation of the individual and the community consciously, through the reflections of distorted and false reality, and heroic symbols of destructive action of thought, and on this basis become those virtual worlds that exist in their symbols and ideologies political and social energy with destructive ideological dimension to the lives of the individual and the family, Across multiple methods that the research will address. For this purpose, this study necessitated the research of the integrated patterns of virtual reality created by modern electronic technology and its destructive methods in the Arab mindset. It is based on three topics: the first topic (image culture), the second topic (alternative destructive symbols), (Space Hypothetical Perceived). The third topic

مدخل:-

تشهد البشرية اليوم تغيرات متسارعة في كل جوانب حياتها، جاءت هذه التغيرات بوصفها نتيجة حتمية لاستعمال التقنية في تفاصيل عيشها كلها، وتفاعلاتها اليومية، لا سيما في مجال الاتصال وتقنية نقل المعلومات التي أدت بشكل واضح إلى تشارك المعرفة والمعلومة بكل سهولة ويسر، وبسرعة فائقة، مما جعل العالم يبدو كقرية كونية صغيرة. ولا شك في أن تكون لهذه التغيرات أثرها المباشر في حياة الشعوب أو الأفراد، بعد أن أقبلت بشغف منقطع النظير على استلهام جميع أصناف هذه التقنية الالكترونية الحديثة، التي تكون أكثرها قرباً إلى حياته اليومية.

لقد تأثرت المجتمعات العربية، مثلها مثل جميع مجتمعات العالم، بهذه الثورة التكنولوجية، وتفاعلت معها بشكل سريع، مستهلكة لما تقدمه؛ وذلك في تتبعها الحثيث لكل ما يُنتَج في هذا المجال.. وقد تأثرت الذهنية العربية بذلك أيما تأثير، وبدت تظهر ممارسات حياتية لم تكن شعوب المنطقة العربية قد اعتادتها، فضلاً عن بروز أساليب تفكير وعادات وقيم غريبة عن الثقافة العربية. الأمر الذي وصل أوجه كأبرز حدث يدلل على خطورة التقنية الحديثة بوسائلها المتنوعة، وأساليبها العديدة، وهو ما أحدثته مواقع التواصل ووسائل الإعلام والميديا من اضطراب سياسي في نسيج المجتمعات العربية في (ربيعها الدامي) الذي خلَّف الدمار والخراب لأغلب دول المنطقة العربية، كونه جاء نتيجة انتفاضة عفوية غير مخطط لها ضد أنظمة عربية استبدادية طال تربعها على عروشها حقب طويلة. وذلك بعد أن تناقلت تلك المواقع ووسائلها التقنية الحديثة انتحار المواطن التونسي (محمد بو عزيزي) مفجر ثورة الربيع العربي. ومثله ما حصل في مصر بنهوض الهامش/الشعب من سباته وزجّه رئيسين له في السجون المصرية، في وقت واحد. مما يعطي للتقنية – الوسيط المادي لمواقع التواصل والميديا ووسائل الإعلام– أهمية أكبر وخطورة واضحة في حياة الشعوب، قد لا تقل خطورتها عن الرسائل التي تبثها عبر وسائلها وأساليبها المتنوعة؛ وذلك لأن التقنية لا تُحدِث على مستوى الآراء والمفاهيم أي تغيير، لكنها تتحكم بنسب الاحساس والاستيعاب لتلك الآراء والمفاهيم بشكل واضح وبلا مقاومة أو معارضة(١)، وكما سيتم بيانه في موضعه.

لقد أصبح الواقع الافتراضي المتحقق بفعل العولمة التي انتجتها مرحلة ما بعد الكولونيالية بمساعدة وسائلها المتعددة التي

اهمها التقنية الإلكترونية، لاسيما مواقع التواصل ووسائل الاعلام والميديا، واقعاً وحقيقة لا يمكن انكارها أو التغاضي عنها بأي شكل من الاشكال، لها عمقاً واتساعاً جعل منها حياة افتراضية لها القدرة على اشباع تطلعات الفرد والجماعة، كونها قد تمكنت من تلبية طموحاته المحدودة ولو بشكل مؤقت أو افتراضي، إذ إن تشكلاتها وتكوينها المرئي يقوم على أسلوب التعبيرات الصورية المرئية، الذي مكنها من تصوير واقعاً افتراضياً موازياً للواقع المعيش بكل تفاصيله وحيثياته، على الرغم من انها تشكل هذا الواقع من جوانب محددة أو من زوايا نظر مخصصة تجعله يبدو بشكل معين دون آخر، كل ذلك أدى أن تكون الميديا ومواقع التواصل ووسائل الاعلام، وكل وسائل التقنية الالكترونية أقدر على إثارة اهتمام متلقيها وتحقيق انفعاله الوجداني، وبالتالي انصهاره فيها إلى درجة الاندماج والانسلاخ ولو بشكل وقتي عن عالمه الحقيقي الى العالم الذي بدأ ينخلق أمامه بشكل واضح وواسع، لما يوفره هذا الواقع الجديد من قدرة على التحكم في الاختيار لما يريد أن يراه وينصهر في تفاصيله، وبما يحققه له أيضاً من متعة (امتاع) وتسلية. ولكن من الخطأ أن ننظر إلى ذلك الواقع الافتراضي المتحقق عبر الميديا ووسائل التواصل أنه تجسيد للواقع الحقيقي أو صورة عنه فحسب، لأنه فوق ذلك يحقق موقفاً واضحاً منه، كونه الأقدر على رصد وضع الفرد والجماعة عبر ما تُجسِّدُهُ مرئياته من حقائق مشوهة ومزيفة، ورمز بطولية بديلة لرموزه التي كان قد آمن بها في السابق وامتثلها في سلوكياته، وعلى هذا الاساس تصير تلك العوالم المتشكلة برموزها وأيديولوجياتها طاقة سياسية واجتماعية ذات بعد إيديولوجي هدّام لحياة الفرد والأسرة، له ارتهانات متعددة تبرز فيها، وعن طريق مرئياتها وترميزاتها، وأن هذا البعد الإيديولوجي يتداخل فيه الانفعالي والإمتاعي والنفعي، فينتج عن تداخلهما مادة فنية ذات إحساس وعاطفة وقوة جاذبة لمتلقيها متحكِّمةً فيه إلى درجة تغيير رؤيته وأيديولوجيته احياناً، فتختلف بذلك نظرته للأمور وتتشوه المفاهيم لديه، فيتزعزع شعوره بالانتماء الوطني والديني أيضاً إلى درجة التمزق أو التشوه، ومن هنا تكمن خطورتها ويتحدد فعلها الهدَّام للفرد والجماعة. إذ لا بد أن نتصور أن كل عمل يلزمه أن تكون له نظرية إيديولوجية، أو وجهة نظر معبرة عن فكرٍ معين، وهي التي عبَّر عنها أوسبنسكي في كتابه "شعرية التأليف" بأنَّها (منظومة القيم العامة لرؤية العالم ذهنياً) من أجل ذلك اقتضت هذه الدراسة أن تسلط الضوء على الواقع الافتراضي المتحقق عبر التقنية

الإلكترونية الحديثة وفعلها التدميري في الذهنية العربية، ومحاولة تشخيص ذلك البعد الإيديولوجي التدميري لها، الذي مكَّنها من التحكم بالوعي الجمعي أو الفردي للجماعات المتلقية لها على حدٍّ سواء، ولما لذلك من أثر كبير وفاعل في حياة الانسان العربي المسلم الذي باتت ذهنيته مشوشة بإيديولوجيات دخيلة وغريبة عن منظومته الثقافية المتوارثة، حتى أنه صار مرتهناً برموز جديدة خلقتها له المنظومة الغربية، كل ذلك من أجل أن تُنحِّي عنه رموزه التاريخية والدينية التي فخرت بها أمجاده على مر التاريخ، حتى صار يشق طريقه عبر مساراته المجهولة وهو غير متنبه بشكل واعٍ للأخطار والمهددات المحيطة به، القاتلة لوقته وفكره وثقافته، وهو غير واعٍ أيضاً لحجم الدمار الذي سيحققه على حياته ومستقبله، وعلى حياة اسرته أيضاً ومستقبلها، وعلى مستقبل بلده بشكل أعم، وبالتالي فإن ذلك سيؤدي حتما إلى تصدعات واضحة في نسيجه الأُسري والمجتمعي، وفي كيانهما الوحدوي.

من أجل ذلك عمد هذا البحث إلى الإفصاح عن ذلك كله بدراسة تعتمد التنظير والاستقراء والتحليل بغية تقديم رؤية أوضح (للواقع الافتراضي المتحقق عبر التقنية الإلكترونية – الميديا ومواقع التواصل ووسائل الاعلام – وفعلها التدميري في الذهنية العربية) ، مُتحددةً بثلاثة مباحث، تناول المبحث الأول (ثقافة الصورة)، والمبحث الثاني تخصص في (الرموز التدميرية البديلة)، في حين تضمن المبحث الثالث (الفضاء الافتراضي المُدرَك)، وكما سيمر بيانه تباعاً.

المبحث الأول

ثقافة الصورة

اهتم الانسان بالصورة منذ بدايات نشوء البشرية على وجه المعمورة، وما النقوش والصور على جدران كهوف الانسان البدائي إلا الدليل الواضح على صحة هذه الحقيقة التي ظلت على شكل بصمة تركها للأجيال على مر الأزمان وتعاقب الدهور، ولعل هذا الولع بالصورة والتصوير لجوانب من الحياة وتشخيصها، والذي لا يزال مستمراً إلى الآن، وحتما سيستمر في المستقبل، يعود إلى جملة حقائق، لعل اهمها عدم ثبات الصورة في كل عصر على مفاهيم محددة، أو جماليات ثابتة، فهي متغيرة بمدلولاتها وجمالياتها، مما يمنحها بعداً واضحاً من المرونة، ويبعدها عن الرتابة والجمود او التنميط، فضلاً عن أنها تثير جملة من الأحاسيس والمشاعر والرؤى في كل مرّة يتم مشاهدتها أو تلقّيها، ومن قِبَلِ أي متلقٍ لها، مما يساعد على تأثيرها السريع في النفوس، وشدَّة التصاقها

بالذهن.. غير أنه في الوقت الراهن، وابان عصف الإرهاب والترهيب العالمي، برز شكل جديد للصورة روجت لها وسائل الإعلام عبر التقنيات الالكترونية ووسائل التواصل المختلفة، وتبنته المخيلة الجماهيرية بشكل غير واعٍ، أو بشكل واعٍ حسب المستويات الذهنية والمنظومة الثقافية لتلك الجماهير، فتمثَّلته في ممارساتها المختلفة، وفي مخرجاتها المتنوعة، تحقق ذلك عبر الصور المبثوثة في الواقع الافتراضي المتحقق عبر مواقع التواصل والميديا فكشن والتي تحمل أبعاداً أيديولوجية تمرر سمومها الفكرية إلى الافراد بشكل خفي غير معلن، ومبطن بامتاع يشد اهتمام المتلقي، ويسهم في الشغف بها، حتى في حالة استهجانها. وحادثة احراق الطيّار الأردني (الكساسبة) من قبل ما يعرف بتنظيم داعش، بما يحمله المشهد من صدمة وعنف ووحشية، الدليل الأوضح على ذلك الشغف، علماً أن ((إدارة اليوتيوب عمدت إلى حذف مقطع "شفاء الصدور" الذي بثه داعش عن احراق الكساسبة مرّات عدّة، لكن داعش كان كل مرة يعيد تحميله على شبكة الانترنت إلى أن تيقن أنه وصل تماماً إلى مقصده))[٢] لكثرة المشاهدة له من قبل الجماهير التي وجدت نفسها مدفوعة بقوة لمتابعة الحدث ومشاهدته بحماسة مروعة.. هذه الذوقية التي تحمل سموماً مجتمعية وسلوكية واضحة، لم تكن متاحة للجماهير العربية فيما سبق، ذلك أن الفنون الصورية (التلفزيونية أو السينمائية وحتى المسرحية) التي كانت تألفها، قد دأبت على الإيجاز وعدم الافصاح بشكل صريح عن مشاهد العنف والترهيب، وكذلك مشاهد الجنس أيضا، لأسباب اجتماعية وذوقية ورقابية، ففي مشهد القتل مثلا، يُرى القاتل وهو يهوي بسكين أو أي آلة نحو الضحية، ثم يُرى بعد ذلك علامات الطعنات أو الكدمات كرد فعل على وجه القتيل، إشارة لعملية القتل، وبالاعتماد على الحذف، من غير إظهار لفعل القتل بشكل صريح، أما في مشاهد الجنس، فقد تبدأ الكاميرا بالتحرك بعيداً عن الشخصيات وتركز بدل ذلك على رمز الدال، أو تتحرك مع حركة الشخصية حتى يعترض الرؤية جزء من الديكور فتتوقف الكاميرا عنده، غير أن الميديا ومواقع التواصل الاجتماعي قد تجاوزت كل هذه القيود في واقعها الافتراضي الذي تخلقه، كونها تعتمد على معايير رقابية عامة لا تنسجم مع معايير مجتمعاتنا العربية الاسلامية، من أجل ذلك أدت مشاهد القتل والاغتصاب والعنف المبثوثة في مواقع التواصل والميديا فعلها التدميري في الذهنية العربية، إذ إنها عملت كمحفزات تثير المتلقي لها، هذه المحفزات تستدعي استجابة أو

سلوكاً يقوم أساساً على هذه المحفزات، تظهر تلك السلوكيات في مواقف الاقتران أو التشابه بشكل واضح[٣]، حتى أنها غيرت من ذوقيتها تجاه الفنون التعبيرية، وتجاه كل ما تتلقاه بشكل واضح، فامتثلتها في الكثير من ممارساتها السلوكية والتعبيرية[٤]، حتى ظهر العنف بادياً في المجتمعات العربية على صور مختلفة، مثل كثرة الانتحار[٥] أو القتل الذي تزايد وتيرته بشكل واضح في الآونة الاخيرة، وكذلك بروز روايات[٦] وقصص عربية تقوم على القتل والترهيب كرد فعل واضح على تأثر الذوقية العامة لدى الجماهير بمشاهد العنف التي اصبحت جزءاً من الواقع المعيش للإنسان العربي، أو من واقعه الافتراضي الذي يتلقاه يومياً ويتابعه بشغف منقطع النظير، وإن هذا التأثر لا يتحدد بالتماهي، بقدر ما يجسد موقفاً منه.

من أجل ذلك يمكن القول أن الصورة المتجلية عبر وسائل التواصل والميديا ووسائل الاعلام، تقوم على تقنيةٍ تمرر فعلاً هداماً في ذهنية الانسان العربي المعاصر، معتمدة في ذلك على أساليب متنوعة تعمل على عصف الإدراك البشري بكم هائل من الصور لموضوعات مختلفة وفي قت وجيز جداً، وفي هذا الوقت الذي يتلقى فيه الذهن هذا الكم الهائل من الصور والمعلومات والخبرات المتجلية فيها، فإنه يقوم بعملية المسح أو المحو لصور عديدة ليست ذات أهمية كبيرة بالنسبة إليه؛ كونها صوراً مكررة قد تم تلقيها أكثر من مرة وفي أكثر من موقف، فأصبحت مبتذلة وغير مهمة، بينما قد ترسخ في ذهنه بعض الصور التي استفزت اهتمامه، والتي هي أيضا ستكون فيما بعد مكررة وغير مهمة عند تلقيها أكثر من مرة. إن هذا الأمر على الرغم من كونه يحقق التعلم للخبرات والسلوكيات أيضاً؛ بناءً على التكرار –تكرار المُشاهدة للصورة نفسها– الذي يتضمن مثيرات للمتلقي بشكل مؤكد، وهو عماد نظريات التعلم السلوكية التي ظهرت بدايات القرن العشرين، إلّا أنه يعتمد في الوقت نفسه على فعلي (الإهمال والمحو) بالطريقة التي أوضحناها، وذلك لعدم تحقيق التعزيزات للخبرات المُتَعَلَّقة؛ كونها قد تمَّ تشويهها بخبرات جديدة من صور أخرى، وبكميات هائلة. إن هذا الفعل (الإهمال والمحو) الذي يقوم به الدماغ في تعاطيه مع الخبرات والصور في واقعه الافتراضي الذي يتلقاه عبر مواقع التواصل والميديا ووسائل الاعلام، هو إجراء طبيعي معتاد يضمن عدم تراكم الخبرات او المواقف وحتى الصور المتشابهة، فيقوم على حذفها وإهمالها، سواء كان ذلك في الواقع الطبيعي للحياة اليومية أو في الواقع الافتراضي الذي تخلقه مواقع التواصل ووسائلها الأخرى. غير

أن هذا الفعل يؤدي جملة من الأمور التي تسبب خلخلة في ذهنية الانسان العربي المسلم، أهمها:

١. إن هذا الإجراء يدرب العقل – يومياً وعبر مواقع التواصل والميديا ووسائل الاعلام– على تمرير العديد من الصور التي يقع عليها اصبعه في جهازه النقال مثلاً، وبسرعة فائقة، وهو في ذلك الوقت القصير نسبياً تتحقق لديه عدَّة انطباعات ذاتية وسريعة أيضاً، أي أنها سرعان ما تزول وتتلاشى حالما يتلقى صورة أخرى لموضوع مختلف.. هذا الفعل والتدريب سيجعل من الذهنية الواعية للفرد مستعدة تمام الاستعداد لتقبل أي موقف حياتي أو خبرات على أرض الواقع المعيش، أو حتى معلومات أو معارف احيانا، ومتهيئة أيضاً إلى تمرير كل ذلك أو جزء كبير منه بسرعة إلى ذاكرة العقل الباطن من أجل نسيانها أو على الأقل تناسي أغلب تفاصيلها ودقائقها، والتهيؤ مرة أخرى لتلقي صورة أخرى وموقف آخر، وتمريره أيضا بسرعة لتتلاشى في لا شعوره عبر العقل الباطن، وهكذا دواليك.. الأمر الذي يجعل منه أكثر سطحية في تلقي الأمور والمواقف، وتغيب لديه النظرة الثاقبة العميقة وتتلاشى لديه الفراسة والحدسية حتى يكون أشبه بروبوت ليس إلا.

٢. إن هذا التتابع للكم الهائل من الصور التي يتلقاها الانسان يومياً عبر وسائل التواصل والميديا من الممكن أن يكون بعضها متشابها أو قريب الشبه من غيره، كما أن بعضها الآخر سيتمكن من إثارة اهتمامه أول ظهورها؛ كونها تتمتع بنوع من الجدة والمغايرة، غير أن هذه الجديدة ستتحول فيما بعد إلى مبتذلة ومكررة؛ لكثرة تداولها في واقعه الافتراضي، وأنها حتما ستُمَرَّر إليه فيما بعد عن طريق أكثر من مستخدِم وعبر أكثر من متصفح، وبذلك تصير أيضا صوراً ومواقف مكررة ومبتذلة وليست ذات أهمية، وهذا بدوره يدفعه إلى البحث عن صور ومواقف أكثر جرأة، وتكون كفيلة بإثارة اهتمامه، واشباع فضوله في بحثه عن الجديد والسبق إليه.

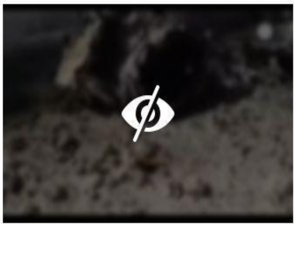

وهذه المسألة تكون أكثر خطورة في موضوعات محددة مثل الجنس أو الجريمة والعنف، وهذا من شأنه أن يجعل الفرد أسير تلك الصور والمواقف الشاذة التي تبثها مواقع التواصل والميديا، التي ما تفتأ تغذيه بالجديد القادر على تكبيله وزيادة أسره وتضييع وقته بالسفاسف من الأمور، فتجعله مجرد متلقٍ سلبي غير فاعل في وسطه، لأنه تعلم وتدرب على التلقي فقط، مما يخلق منه فرداً غير فاعل ولا يأبه بإحداث التغيير، بل يتطلع إلى تمرير ما يراه بسرعة، ومحاولة البحث عن جديد يلبي حاجاته البديلة كي يتم اشباع رغباته ونوازعه الذاتية، فتتشوه بذلك فطرته التي فطره الله عليها، والتي تريد منه ان يكون فاعلاً ومؤثراً في وسطه، لا إمَّعةً. والغريب في الأمر أن مواقع التواصل والميديا تعتمد حالياً على تقنية إلكترونية جديدة من أجل تبرأة نفسها، ولو شكلياً من الفعل التدميري المتهمة به، للعقول البشرية المتماهية معها، وهذه التقنية استخدمتها في مواقعها وبرامجها الالكترونية بعدما تعالت عليها دعاوى الاستنكار والشجب لما يُبَث فيها من صور صادمة للموت، هذه التقنية تتحدد في حجب تلك الصور وجعلها غير المرئية بشكل واضح، ووضع إيعاز تحذيري في منتصف الصورة أو المقطع على شكل (رسمة عين) سهل الفتح، وتحته عبارة: (قد تعرض الصورة محتوى عنيفا أو عنفاً مصوراً) وبمجر النقر عليه تفتح الصورة بشكل طبيعي جدا، وهذه العبارة بحدِّ ذاتها هي كفيلة بإثارة اهتمام المتلقي وتأجيج فضوله، مما يجعله أكثر تحمساً لفتح الصورة والاطلاع على محتواها، وبالتالي ستكون مثل هذه الصور شديدة الرسوخ في ذهنيته؛ لأنها لم تعتمد على النمطية نفسها للصور السابقة التي تلقاها. ولمّا كانت الجماهير الشعبية العربية على خلفيات ثقافية ومعرفية متباينة، سيتباين حتما تعاملها مع هذه الصور أو المقاطع، وربما ينغمس بعضهم في محتواها وتستحكم عليه أيديولوجيتها المُمَرَّرَة إليه بشكل خفي وغير معلن، حتى أن بعضها قد يثير الرأي العام ويؤجج الوضع الراهن، خالقةً بذلك وعياً محدداً ومُخططاً له ولفئات جماهيرية عريضة، ومثال على ذلك الصور الصادمة للموت التي ضجت بها وسائل الاعلام ومواقع التواصل والميديا فكشن لاسيما تلك التي بثَّتهَا داعش عن النساء الايزيديات اللاتي تم اغتصابهن أو قتلهن، ومنهن على سبيل المثال لا الحصر (نادية مراد) التي تعرضت للاغتصاب والتعذيب على يد (داعش)، بعد ان تمكنت من الفرار من قبضتهم، لتحكي تفاصيل مأساتها.

إن مثل هذه الصور من الممكن أن تؤدي إلى تشويه النظرة العالمية عن الدين الاسلامي، على اعتبار أن (داعش) رافعة لشعار الاسلام، عبر راياتها السود، وممثله عنه، ولو بشكل ظاهري. كما أن صورة الطفل السوري "آلان كردي" (٢٠١٢-٢٠١٥) الذي وجِدَ غريقا على الشاطئ تتلاطمه أمواج البحر، هي الأخرى قد سببت موجة من الغضب ضجت بها البشرية كلها على وجه هذه المعمورة، واحدثت تذمراً لدى الكثيرين، حتى أن صورته تحولت إلى إيقونة ترمز إلى اضطهاد البلاد لبعض شرائحها من الاقليات المقموعة؛ كونه من الأقلية الكردية التي تمثل نسبة ١٠% من النسيج المجتمعي لسوريا(٧). وأدت أيضاً إلى تعديل المفهوم العام عن الوطن، إذ لم يعد يُنظَر إليه بأنه المكان الذي نعيش فيه ونموت فيه، بل المكان القادر على أن يعيش فينا.

لقد تأثرت الذهنية العربية بهذه الذوقية الجديدة، وانطلى عليها الفعل التدميري لما تبثه مواقع التواصل والميديا من صور صادمة للموت والدمار، فمررت إيديولوجية القوى الكولونيالية -المالكة لتلك المواقع، والمتحكمة فيها- بخفاء مبطن إلى الشعوب العربية المجتهدة بالتلقي لها، في الوقت الذي كان حريا بها أن تعي الدور المرسوم لكل فرد داخل مجتمعه الاسلامي، غير أنه، ولصعوبة تحديد مدلولات ما تبثه من صور ومفاهيم؛ نظراً لتشظيها، أكسبها كل ذلك قوة أكبر على التأثير والفعل بحكم تلك الإيديولوجيا، إذ إنها عملت على تسخير مبناها القائم على مرئياتها في خلق إشارات ودلالات عملت على توجيه التلقي لها نحو وجهة محددة تلخَّصت بزجِّ المتلقي في جوٍ من الشعور بالسلبية تجاه موروثاته التي كان قد آمن بها في السابق وامتثلها في سلوكياته ردحاً من الزمن، فهو الآن غير مؤمن بتاريخه أو إرثه الميثيولوجي، لأن ذهنيته باتت مشوهة وغير ثابته، ومتأثرة بثقافة الآخر الغربي، وناظرة لها بالانبهار والهيبة.

المبحث الثاني

الرموز التدميرية البديلة

جاء في معاجم اللغة أن المعنى اللغوي للرمز مأخوذ من الاشارة والتعيين والدلالة، فنقول: **رَمَزَ** إليه رَمْزًا: أَوْمَأَ وأَشار بالشَّفَتَيْن أو العينين أو الحاجبين أَو أَيّ شيء كان. كما في قوله تعالى: ((قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلا رَمْزًا)). آل عمران، آية٤١.

و **رَمَزَ** الظَّبْيُ رَمَزانًا: وَثَبَ. و **رَمَزَ** إلى الشيء بكذا: دَلَّ به عليه. و **رَمَزَ** فلانًا بكذا: أَغْراهُ[٨].

فالرمز إذن متحدد بالإشارة والإيماء وعدم الافصاح، وبذلك يمكن النظر إليه بعدِّه علامة مُحمَّلة بالدلالة والمعنى، أو هو لغة مجازية تعتمد على كيان يتم تشكيله، لا يراد به تمثيل ذات الأشياء التي يدل عليها بمدلولاتها الفعلية، بل يتعدى ذلك، وهو في إطاره النسقي الموضوع فيه، إلى اغداقه معنى جديداً يعمق من دلالة الأصل المرموز إليه، ويمنحه بُعداً وعمقاً في التأويل أو التعاطي معه. وبذلك فهو انتاج دلالي أو إشارة تشفيرية من صنع جماعة بشرية محددة تقوم على وعي مشترك فيما بينها. ذلك أن الانسان بطبيعته كائن رمزي، مولع بإنتاج الرموز والإشارات الدلالية الموحية والمعبرة بأكثر مما تشير إليه، فحينما يوجد في وسط ما يتمثله على نحو رمزي، فالمكان والزمان، والعلاقات والأشياء ومتغيرات الوجود تؤثر في وعي الإنسان، وفي منظومة عقله الباطن على نحو رمزي، وتتحول إلى طاقة برمجة داخلية، تؤثر بشكل واضح في سلوكه البشري[٩]. كما أن الرمز من جهته، يغطي دلالة الترابط بين أمرين: أحدهما محسوس والآخر مجرد، فالحقيقة المرئية (القابلة للملاحظة بالحواس الخمس) تستحضر في الوعي حقيقة أخرى غير مرئية، ولكنها وثيقة الصلة بما هو ماثل في الحواس، وبالتالي فإن طرفي العلاقة بين المرئي والمجرد يشكلان كلّا واحداً لا يفهم إلا من خلال فهم الكل المشكِّل له، وعلى هذا الاساس يأخذ الرمز هيئة تصور ذهني لحقيقة غائبة أو مجردة، وعلى وفق ذلك فإن الأنظمة الرمزية تؤدي دورها في التعبير عن الأفكار والمفاهيم والتصورات والمعاني والدلالات[١٠]. كما أنها ظاهرة اجتماعية ثقافية متناهية التعقيد؛ كونها أدوات تواصل ومعرفة تشكِّل بنيات تُخضِع العالم، وتؤدي وظيفتها السياسية من حيث هي أدوات لفرض السيادة ومنحها صفة الشرعية التي تسهم في ضمان هيمنة طبقة على أخرى[١١]؛ وذلك لأنها تتيح فعل التكتل لأفراد تضمن لهم التواصل فيما بينهم بشكل مُدرَك أو غير مُدرَك، وهذا التواصل يحقق بدوره نشوء وعي مشترك بين

أولئك الأفراد، وبالتالي تتحقق الفروق الإدراكية والمشتركات بينهم وبين التكتلات الأخرى التي تناقضها في وعيها الخاص بها، فسلطة الرمز هي ((سلطة بناء الواقع وهي تسعى لإقامة نظام معرفي))(١٢). وهذا النظام المعرفي هو الوعي القائم بين الأفراد والجماعات، وحتى الشعوب، الذي يحقق تواصلهم المعرفي والترميزي المشترك. فلدى شعوب المنطقة العربية مثلاً، العديد من الرموز التاريخية والدينية التي يفخر بها الانسان المسلم، ويستلهم منها مُثُلَهُ وقيمَه الأصيلة، تلك الرموز التي تكون مثل شموع تنير طريق ظلمته، وتسدد مساراته نحو النجاح في الدارين، والتي يستقي منها أيضاً المحددات الواضحة لتربيته الأسرية والذاتية والمجتمعية أيضاً، وما سيرة النبي محمد (ص) وقصص الأنبياء (عليهم السلام) وفضائل آل البيت (عليهم السلام) ومناقبهم وسيرهم المُشرفة، وما أُثِرَ أيضاً عن بعض الصحابة من أقوال وأفعال إلا النموذج الأصلح لخلاص الانسان العربي المسلم ونجاته وفوزه، وتوفيقه أيضاً وتقدمه، غير أن المرحلة الراهنة التي يعيشها الانسان العربي في ظل العولمة والتطور التكنولوجي، وتغير اساليب الدول الغربية وسياساتها القائمة على تدجين الشعوب واخضاعهم فكرياً، كي تجعل منها تابعاً، أو على الاكثر تجعلها تنظر إلى نفسها بالنكوص والصِغَر والاستلاب، ترك تلك الشعوب تعيش أزمة ذاتية جعلتها متطلعة إلى الغرب بأنه النموذج الأمثل لخلاصها من هذه المحنة والأزمة، وهي بذلك تتنكر لماضيها العريق، وأمجادها ورموزها التي كانت يوماً ما أسياد العالم وقادته. إن هذه القطيعة مع الرموز الحقيقية لشعوب العالم العربي هو أشبه بالاقتلاع من الجذور، والارتهان بالغرب، الذي يبث رموزه الحمَّالة لأيديولوجيته الهدّامة والتدميرية والجانحة لاستعباد الشعوب وفرض هيمنته وتسيّده عليها، كي تبقى (تابعاً)، ليس بمقدورها أن تحقق وجودها إلا بالاستعانة بالغرب الذي يملك مفاتيح النجاح والخلاص لكل خطر أو تهديد. من أجل ذلك عملت القوى الكولونيالية على أن تأخذ رموزها التدميرية صيغاً مختلفة ومتنوعة، مستعينة في ذلك بكل وسائل الاعلام ومواقع التواصل والميديا من أجل أن تُكسِب تلك الرموز القدرة على أن تكون في متناول الجميع، وبالتالي تتمكن من تكوين وعيها الزائف في الذهنية الجماهيرية المتلقية لها، وهذا بدوره يحقق نوعاً من المصداقية العقائدية والإيديولوجية لمتضمناتها، مما يسهم بشكل كبير في التماهي معها كلياً والامتثال لقيمها، والخضوع بطريقة عفوية لثقافتها ودلالاتها؛ لأنها تسمح للأفراد والجماعات بتعلم ثقافتها

وترميزاتها ودلالات تلك الترميزات عن طرق المحاكاة لها، وهنا تكمن خطورتها التدميرية في الذهنية البشرية، وفي سلوكياتها المتوقعة منها فيما بعد.

إن المؤسسات الاجتماعية والسياسية لا تصمم رموزها من فراغ أو بناء على فراغ، بل على الضد من ذلك، فهي تخلق رموزاً قادرة على التأثير في الآخرين عن طريق تأسيسها على قاعدة تواصلية معهم؛ أي أنها تُصَمَّم بناءً على وعي مسبق لجماعات معينة، وتكون تلك الرموز مشابهة لذلك الوعي في بعض جوانبه ظاهراً، أو داعمة له، فضلاً عن كونها تكتسي بصبغة الوداعة والألفة، مما يمنحها شرعية واضحة للتصديق بها والامتثال لها، يساعدها في ذلك انتشارها الواسع لدى الجماهير، عندما يتم الاستعانة بوسائل الإعلام ومواقع والتواصل والميديا، فيكون تأثيرها أكبر وفعلها أخطر. ومن أهم تلك الرموز رمز (المُخلِّص) الذي يستند على وعي مشترك لدى البشرية جمعاء، بالتوق لمخلص يخلصها من محنتها. هذا الوعي المشترك صُنِعَ له رمز بديل يُظهِر للعلن خلاص البشرية به، وعن طريقه، من كل مآسيها ومحنها، لكنه في الوقت نفسه يُضمِر أيديولوجيا تتناقض مع ذلك تماماً؛ كونها ترمي إلى استعباد الشعوب واستبدادها، وتهميشها. هذا الرمز البديل، الذي أصبح سردية كبرى لا يمكن الانفلات من متضمناته المسرَّبة إلى الأفراد، هو (البيت الأبيض) في الولايات المتحدة الأمريكية، فهو يقوم على رمزين من أقوى الرموز لدى البشرية وأهمها صلة بها، فضلاً عن سهولتهما وقربهما من الفهم المشترك لمدلولاتهما الترميزية، فدلالة كلمة (البيت) ترمز إلى الألفة والدعة والهناء، التي هي على الضد من دلالة كلمة (قصر) مثلاً التي تنسجم تماما مع الوعي السائد لدى الناس في تمثيلها لمكان الحكم والرئاسة. في حين ترمز كلمة (الأبيض) إلى النقاء والصفاء والشفافية والصدق. كل ذلك من شأنه أن يولد احساساً أليفاً لدى المتلقي لهذا الرمز المركب، لا سيما وأن خارج ذلك البيت حدائق عامة وتجمعات لأناس يتحركون ويتجمهرون أحياناً بقربه بكل حرية، ويلتقطون الصور التذكارية أمامه، وذلك بحكم ما تصوره الميديا ووسائل إعلامها وموقع التواصل أيضاً، وهو ما لا يمكن رؤيته بهذه الصورة في العديد من القصور الرئاسية للدول الأخرى. غير أن السور المانع الذي يحيط به يحدد المسافة التي ينبغي اتخاذها بين بيت الحكم الامريكي وبين العالم ككل، أو بين الدلالة الظاهرية المتمثلة بالحرية والألفة والشفافية، وبين الدلالة العميقة للبيت الأمريكي المتناقضة مع

ذلك تماماً، هذا السور المنيع، هو الهالة التي تريد أمريكا أن تحيط نفسها بها أمام العالم، وهي هالة من السلطة والسطوة والقوة والهيمنة، والنفوذ غير المُنتَهك، والقدرة على تسيير الأمور بدهاء وخفاء وهدوء أحياناً.

لقد عملت كل وسائل الإعلام والميديا ومواقع التواصل على منح رمز البيت الأبيض هذه الهالة التي تحيط به، وفي الوقت ذاته أظهرته بمظهر الدعة والألفة، ولكن حينما يفكر الآخرون في اقتحام سوره/هالته، يكون مصيرهم الموت.

من جانب آخر، يتضح أنها – وسائل الإعلام والميديا ومواقع التواصل – شكَّلت له صورة الملاذ الآمن، أو (المُخلِّص) الذي يخلص البشرية في كل معاركها من الخطر، عبر أبرز مؤسساته المرتبطة به والممثلة لأيديولوجيته، وهي الـ (F.B.I)[١٣]هذه المؤسسة التي صورتها الميديا في كل مرة بأنها المخلص والمنقذ من كل تمر أو تهديد يهدد الأفراد. وتوسع هذا المفهوم ليطغى على كل الرموز المرتبطة بالبيت الأبيض، من قوى عسكرية (كالمارينز)، أو قوى فردية كرمز (جيمس بوند) أو (رامبو) أو شخصية المحارب الخارق المجهَّز بالتقنية الحديثة، وغيرهم، فضلاً عن الأفلام التي تحاكي فكرة نهاية العالم، وأن الخلاص من ذلك أيضاً هو بالفردوس الأمريكي.

الملفت للانتباه أن الميديا حينما روجت لذلك – لرمز الأمريكي المُخلِّص– كانت تسعى من وراء ذلك إلى تعزيز مكانة أمريكا إعلامياً ودعائياً بأنها شرطي العالم. وإن هذه الصورة التي قدمتها وسائل الإعلام والميديا ومواقع التوصل قد أخذت حيزها في الذهنية الواعية لدى شعوب المنطقة العربية والعالم ككل، إذ أصبح لا غبار على قدراتها العسكرية أو التقنية أو التكتيكية، مما رسَّخَ من مشاعر التهيب لها، ومنحها بعداً ترميزياً كبيراً، وقد تحقق لها ذلك كله من خلال خلقها لواقع افتراضي غير حقيقي استثمر التقنية الإلكترونية بكل تصنيفاتها الدعائية لخدمة التطلعات السلطوية الميالة إلى فعل الإخضاع والتدجين للشعوب غير المنسجمة مع أيديولوجيتها أو معتقدها الديني، لاسيما شعوب العالم العربي؛ كونها الممثلة لديانة الاسلام التي فرضت عليها في يوم ما الجزية وجعلتها تابعة لها عندما تسيدت على العالم في عصورها الماضية.

من خلال ما تقدَّم، نخلص إلى نتيجة حتمية للرموز المتداولة بين الجماهير الشعبية، تتحدد بوجود مسافة فاصلة بين ما ترمز إليه ظاهراً، وبين ما تضمره من معنى ودلالة يتم تشربها أحيانا بشكل غير واعٍ، أو بطريقة لا إرادية، وهنا تكمن خطورتها وأثرها التدميري على الأفراد أو الجماعات، فيما لو كان ذلك

النسق المُضمَر يُرسخ فكراً تدميرياً للذهنية المتفاعلة معه. ولإيضاح هذه الفكرة بشكل أعمق، نأخذ على سبيل المثال لا الحصر، رمز (التاج والصولجان) في ترميزهما إلى القوة والسلطة، غير أنهما في الوقت نفسه، يضمران معنى آخر مُمرَّر إلى الذات المتلقية له يتمثل بالخضوع والطاعة والامتثال[١٤]، إذن، في كل رمز هنالك دعوة سلوكية محددة تكون غير مُشعَر بها؛ كونها تتسرب إلى الأفراد، ومن هنا يتحقق فعلها وأثرها الثقافي أو الاجتماعي في حياة الجماهير الشعبية التي تستلهمها وتتفاعل معها باستمرار، وبشكل طوعي وجمعي، مولِّدة، إثر ذلك، وعياً جماعياً زائفاً يتم التماهي معه بعدِّه من المُسلَّمات؛ لاتسامه بصفة الشيوع والانتشار.

المبحث الثالث

الفضاء الافتراضي المُدرَك

الفضاء الافتراضي المدرك (Space Hypothetical Perceived) هو الفضاء الذي يتم تَشَكُّلَه من خلال إدراك الفرد نفسه للواقع الافتراضي الذي يتعاطى معه تلقياً عبر مواقع التواصل والميديا ووسائل الاعلام، فهو:((الطريق الذي يقدم به الفرد حواسه ليؤثر في الفضاء))[١٥] أو يتأثر به إدراكاً وتفاعلاً، إذ يتجسد لدى الفرد، ومن خلال ما يتلقاه يومياً عبر مواقع التواصل والميديا ووسائل الاعلام، واقعاً افتراضياً جديداً يتشكل من خلال مدركاته، عندما يتحقق فيه، وعن طريقه، الانسجام والتفاعل بتماهٍ واضحٍ يحقق انفلاته من واقعه المادي المعيش وانغماسه في ما يتراءى أمامه من واقع افتراضي مُدرَك، فينخلق أمام الفرد واقعاً افتراضياً تتكامل صورته عبر حاستين من أهم حواس الإنسان قدرة على التشكيل والتجسيم، والتصديق، وهما: السمع والبصر، وقد تنشأ بمساعدة هاتين الحاستين، نوعان من العلاقات بين الفرد والفضاء المرئي، هما:

١-علاقة تأطير[١٦]: إذ إن كل ما يشاهده الفرد من مرئيات عبر مواقع التواصل والميديا لا بد من أن يُشكِّل لديه إطاراً "frame " للفضاء المرئي، وهذه العلاقة ترسم أبعاد الفضاء المدرك للفرد بكل حيثياته وتداعياته على انطباعه، كما أن هذا التأطير من شأنه أن يؤطر أيضاً حدود الفكرة المُتَضمَّنة، أو المفهوم المُراد تجسيده؛ ذلك أن كل ما يتم بثه هو في حقيقته مؤطر بزاوية محددة، أو وجهة نظر باثها الذي ينتمي لإيديولوجية ما، أو جهة معينة، وبذلك فهو يعمل على أن يَرى الأفراد ما يُريد هو أن يَرونه فحسب. ومن خلال هذا المفهوم تتحدد الخطورة المضمرة لمواقع التواصل والميديا ووسائل الاعلام، فيما لو كان المتحكم بها والباث فيها يمثل القوى

الامبريالية التي لا تريد لدول العالم العربي أن تكون واعية.

٢-علاقة التفاعل الإدراكي[١٧]: فالفرد المتلقي لذلك الفضاء بالمشاهدة والسماع من المُستَبعد أن لا يكون مُتفاعلاً فيه حد الانغماس في رؤاه وأيديولوجياته، وحتى لو كان ضدَّ مُتضَمَّناتها تلك، فإنه يُضاددها ويعارضها بالاستناد على رؤيتها أيضاً، أي أن فعلها يستحكم على ذهنه إلى درجة كبيرة، وكأنها حقائق يتعاطى معها بالتعارض أو التأييد.

من ذلك يمكن القول، أن الفضاء الافتراضي المُدرَك يتشكل من خلال انطباعات الأفراد، وهذه الانطباعات ماهي إلّا تداعيات اتصالهم مع ما يتم تلقيه عبر مرئيات ذلك الفضاء، سواء كان الاتصال لغوياً أو اجتماعياً أو أي اتصال ظاهري آخر.

من جانب آخر، فإن ذلك الواقع الافتراضي المُدرَك من قبل الفرد يتيح له الاندماج فيه والانغماس في تفاصيله، وبالتالي يصير هو الواقع البديل والحتمي عن الواقع الحقيقي المعيش؛ كونه قد تم ادراكه بأقوى حواسه، مثله مثل الواقع الحقيقي الذي يكون في كثير من الاحيان غير موافق لرغباته، أو أن يكون مجبراً على مسايرته والتعاطي معه، وهذا الأمر قد لا ينطبق على الواقع الافتراضي المُدرَك الذي يملك الفرد معه حرية الاختيار للكيفية لتي سيكون عليها، فإذا ما أراد تغيير ما يتلقاه في الواقع الافتراضي المُمَّرر إليه، ما عليه إلا أن يحرك إصبعه كي يحدد واقعاً افتراضياً جديداً يرغب فيه.

استناداً على هذا التغير في حياة الناس قدَّم (جيرزي كوسينسكي) روايته التي تحاكي ما أسلفنا ذكره، التي بعنوان "أن تكون هناك Being there" ليتم عرضها لاحقاً على شكل فيلم من تمثيل الممثل البريطاني الكوميدي "بيتر سيلرز" في دور الجنائني في قصر عائلة غنية، ذلك الجنائني الذي كان شبه منقطع عن العالم الحقيقي، إذ لم تكن تربطه أي علاقة مع اصحاب القصر أو غيرهم، بينما يقضي وقته امام شاشة التلفاز، وجهاز التحكم "الريمونت" لا يفارق يده، وكلما ازعجته صورة أو فيلم تخلص منها بهذا الجهاز. ولكن في الوقت الذي يخرج الى الواقع بعد بيع القصر، يخرج آخذاً معه شيئاً واحد فقط، هو جهاز التحكم، ففي ظنه انه سيواجه هذا الواقع بالكيفية نفسها التي كان يواجه بها واقعه الافتراضي، مما يوقعه في كثير من المشاكل والسخرية من الآخرين؛ لأنه في أول موقف مواجهة مع مجموعة من الشباب الثملين الذين أرادوا مضايقته، لم تكن له حيلة في مواجهتهم إلا بجهاز التحكم، الذي أخرجه من جيبه وظل يضغط على أزراره موجهاً رأسه تجاه الشباب

الثملين، منتظراً تغيير الصورة، كما في كل مرة، وكما اعتاده سابقاً في القصر، لكن هذه المرَّة ازدادت الصورة وحشية وعنفاً، عندما تمادى الشباب في إيذائه والسخرية منه وسرقة جهاز تحكمه[١٨].

هذا الفيلم سلَّط الضوء على العلاقة الجديدة بين البشر والتقنية الحديثة التي تبث له يومياً آلاف الصور والافلام القصيرة أو الطويلة والتي تتركه يعيش أزمة إدراكية وهو يعيش عالمين، عالمه الحقيقي الذي اصبح مشوهاً بعض الشيء؛ بسبب ما يتلقاه من شائعات ووجهات نظر ضيقة في عالمه الآخر وهو العالم الافتراضي الذي يُشبِع فيه رغباته المكبوتة والشاذة أيضاً، ويحقق فيه كذلك بعض طموحاته المحدودة والبديلة بشكل خفي أو غير خفي؛ وذلك لأن كل ما يتلقاه عبر واقعه الافتراضي من شأنه أن يحاكيه فعلاً بممارساته السلوكية، أو أن يترسب في لا وعيه كخبرات وتطلعات من شأنها أن تتمخض فيما بعد كممارسات سلوكية أيضاً من الممكن تحقيقها فعلا إن أُتيحت لها الفرصة. فكل انطباع يتشكل مما يتلقاه الفرد عبر وسائل التواصل والميديا، من المحتَّم أن يترسب جزءٌ منه أو جُله كخبرات في لا وعي الفرد، وهذا بدوره سيكون له ارهاصاته في المستقبل البعيد أو القريب، عندما يظهر للعلن على شكل ممارسات سلوكية غريبة عن المُعتاد منه، وفي مواقف استفزازية محددة قد تكون مشابهة بعض الشيء للانطباع الأول الذي تلقاه في واقعه الافتراضي؛ أي أن ما يتلقاه يكون أشبه بمنبهات تستفز لديه الانتباه تجاه متضمناتها، وبذلك تستدعي لديه استجابات محددة من الممكن التنبؤ بها وبكيفية تشكّلها كسلوك يمكن ملاحظته، وذلك بناءً على ما توصلت إليه النظرية السلوكية من نتائج بهذا الخصوص وأقصد به عملية التعلم واكتساب الخبرات والسلوك[١٩]، غير أن ذلك قد لا يظهر بشكل صريح ومعلن، إن كان يحمل سلوكاً غير سويٍّ مغايرٍ لسلوك المجتمع المنغمس فيه، لاسيما في موضوع الجنس أو العنف؛ وذلك بسبب الصراع النفسي الداخلي لدى الفرد بين الأنا "Ego" التي يكون عليها، والأنا الأعلى "Super Ego" التي تريد منه أن يكون مثالياً في مجتمعه، لذلك تظل مكبوتة وقد لا تظهر إلى العلن عند استفزازها بمحفزات –كما أسلفنا– أو قد تُشبَع بسلوكيات وممارسات في الواقع الافتراضي المُدرَك والمُتَلقّى عبر مواقع التواصل والميديا. إذ إن لمواقع التواصل و وسائل الاعلام والميديا قوة فعَّالة وتأثيراً كبيراً في الناس، لا سيما في العالم العربي المُتلقي لها بكل طواعية وتماهٍ، كونهم يفضُّون الرسائل (decode) المُتَضَمَّنة في الاعمال التي

يتلقونها عبر تلك المواقع ويتمثَّلونها ويسلكون تقريباً الاساليب نفسها المشابهة لسلوكيات القوى الكولونيالية المسيطِرَة والمتحكِمَة بتلك المواقع، على الرغم من أنهم يختلفون في تفاعلهم مع تلك الرسائل المُشفَّرة المُمَّررة إليهم، وذلك بحسب تباين خلفياتهم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية(٢٠). ذلك أن من أهم السياسات المضمرة لأمريكا وبعض دول غرب أوروبا هي تمرير ثقافتهم ومعتقداتهم وقيمهم وحتى ثقافتهم الشعبية إلى دول العالم الثالث التي تتميز بكونها سهلة الانضواء، وسريعة الامتثال أيضاً، وبذلك فإن تلك القوى تنشر معتقدات أيديولوجيتها على نحو مُستتر، وفي الوقت نفسه تقوّض الثقافات الأخرى التي يزعم الأمريكيون أنها هشة(٢١)، جاعلة منها تابعاً لها في أغلب ممارساتها وطرق تفكيرها، ابتداءً من الأزياء وقصات الشعر، وحتى طرق التفكير، وأساليب التفاعل والسلوكيات، مما سمي فيما بعد بالفتشية السلعية(٢٢)، والمبادئ والقيم التي صارت تؤمن بها متأثرة بثقافة الغرب، ومتناسية قيمها ومبادئ دينها القويم؛ كونها لا تزال تنظر بالانبهار للمجتمعات الغربية الفاعلة والمؤثرة في محيطها المادي، فضلاً عن أن تلك القوى الغربية الكولونيالية لا تزال تُعزز لدى المجتمعات، ذات الثقافة الهشة، الشعور بالانبهار تجاه الثقافة الغربية، وتجاه مجتمعاتها أيضاً، وتقوض في الوقت ذاته نظرتها تجاه ثقافتها الاستهلاكية الهشة، مستعينةً في ذلك بمواقع التواصل، ووسائل الاعلام والميديا، حتى أنها تعمل جاهدة من أجل تشكيل وعي جمعي لجماعات معينة تتوافق تماماً مع رؤيتها وأيديولوجيتها، من أجل التعتيم على الحالة الحقيقية لمجتمعات تلك الجماعات والتضليل لها خدمةً لمصالحها الاستبدادية، ورغبةً في الحفاظ على مكانتها.

بناءً على ذلك، يرى بعض الباحثين(٢٣) كيف أن حياتنا تُتخَم يومياً بمفهوم الهيمنة والسيطرة على عقولنا وعلى سلوكياتنا بشكل خفي غير ملحوظ، وذلك عبر وسائل وتقنيات متعددة وأساليب متنوعة، تُعد مواقع التواصل ووسائل الإعلام والميديا من أهمها، بل من أكثرها تأثيراً وخطورة في الشعوب التابعة؛ وذلك لصلتها المباشرة بحياة الفرد والأسرة في الوقت الراهن، الذي أصبحت فيه تلك الوسائل وجوداً مهدداً لكيان الأُسر، بعد أن صار الافراد يقضون أكثر أوقاتهم مع تلك الوسائل والمواقع الالكترونية، وقل في الوقت ذاته تواصلهم المباشر مع ذويهم، حتى أنه أحدث زعزعة في عملية التفاعل الأسري، مُشكِّلاً خطورة على متانة تماسكه المقدس؛ بسبب العزلة الاجتماعية والانطواء، التي كانت نتيجة حتمية من نتائج إدمان

مواقع التواصل والميديا[٢٤]، ذلك أن الكثير من الافراد صاروا يُؤثِرُون التواصل الافتراضي على التواصل الحقيقي مع الآخرين، وحتى مع ذويهم[٢٥].

من كل ذلك يتضح الفعل الهدَّام للتقنية الالكترونية، بوسائلها المتعددة من مواقع تواصل وميديا وسائل إعلام، التي أثَّرت في حياة الفرد والأسرة، عندما أتاحت لهم فضاءات افتراضية جديدة يتفاعلون فيها ومعها بكل حواسهم، ويُقبِلون عليها بكل شغف ولهفة، خالقةً بذلك سلوكيات جديدة في التواصل والتفاعل الافتراضي البديل، بشكل غَيَّر من الطبيعة الحقيقية لبنية المجتمعات العربية المجبولة منذ القدم على التفاعل والتداخل والتزاور والألفة، وبذلك تغيرت أنماط المعيشة اليومية للأسرة العربية، وهُدِّمَت عاداتها الاجتماعية التي كانت سائدة قبل عصر التقنية والانترنت، في الوقت الذي بقيت فيه الحكومات العربية، على الرغم من إدراكها خطورة هذه الوسائل الهادفة إلى نقل القيم والافكار والاساليب الغربية وفرضها على المجتمعات العربية ذات الخلفية الحضارية والدينية والاجتماعية التي تتناقض كلياً مع هذه الافكار والقيم، تشعر بالعجز عن مقاومتها، أو على الأقل تصحيح مسار الرأي العام لدى جماهيرها وتوعيتهم بمخاطرها، وفرض مسارات جديدة للتخفيف من سطوتها[٢٦]، كما أنها ظلت معتمدة كلياً على المجتمعات الأجنبية في كل ما يتعلق بوسائل الاتصال ومواقع التواصل والميديا، مرسخة في ذلك ولاءها وتبعيتها التكنولوجية للغرب[٢٧] المُستَعمِر المقوض للوجود العربي مادياً وثقافياً.

<u>النتائج:-</u>

يمكن إيراد جملة من النتائج التي توصَّل إليها الباحث، وهي:-

- يتحدد الفعل التدميري للواقع الافتراضي المتحقق عبر التقنية الحديثة ووسائلها التواصلية وأساليبها المتنوعة التي تُمَرِّر إلى الأفراد ثقافات وقيم غريبة عن قيمهم المجتمعية، وبشكل خفي غير ظاهر، مما يجعل خطورتها على الأفراد أكبر أثراً فيما لو حاولت تمرير قيم شاذة، أو إيديولوجيا ذات صبغة إمبريالية ميَّالة إلى تدجين الشعوب العربية تحديداً؛ كونها شعوباً تنتمي لحضارة مضادة للحضارة الغربية تماماً، مما يدفعها إلى محاولة طمسها، أو على الأقل تشويه منظومتها الفكرية والعقائدية ما أمكنها إلى ذلك سبيلا.
- تعتمد التقنية الحديثة في أغلب وسائلها التواصلية، وفي تأثيرها على الجماعات البشرية، على: (السعة في الانتشار، السهولة

واليسر في الاستخدام، الجدَّة لكل معلومة أو معرفة، المتعة "الامتاع" في التعاطي معها، المعاصرة للأحداث أو غيرها وبدقة عالية). الأمر الذي يشجع كثيراً من الجماهير الشعبية على الإقبال عليها بشغف منقطع النظير، دون الوعي – تماماً– بمخاطرها.

- خلقت مواقع التواصل والميديا ووسائل الاعلام، واقعاً افتراضياً أليفاً – ظاهراً – لمتلقيه، مما شجَّع بعض المستخدمين على جعله البديل المُتاح لهم، لا سيما لدى أولئك الذين يعانون كبتاً مجتمعياً، وصعوبة اندماج في واقعهم الحقيقي. وبدل إيجاد الحلول للاندماج الكلي في المجتمع الحقيقي، وجدوا سهولة تقمص أدوار جديدة والاندماج في مجتمعات افتراضية وواقع افتراضي مزيف، يحقق لذواتهم الرضا والقبول والاحترام، والأهم من كل ذلك هو الاندماج الكلي.

- لقد تضمنت الصور، التي تُبَث يومياً عبر وسائل الاعلام ومواقع التواصل والميديا، ثقافة تدميرية للذهنية الواعية للأفراد، وبشكل غير واعٍ؛ وذلك لأنها برمجت العقول البشرية على سمة الاستيعاب السريع والسطحي للمرئيات والخبرات، والمحو السريع لها أيضاً، مما يؤثر سلباً في طرق التفكير والتعاطي مع المعارف، وتعذر استلهام الخبرات والمعلومات فهماً واستحكاماً.

- انتجت وسائل الاعلام ومواقع التواصل والميديا، رموزاً افتراضية بديلة تُظهر أقل مما تُضمر، مما شكَّل وعياً جماعياً للحشود الجماهيرية التي باتت تنظر إليها بالانبهار، دون الوعي لخفاياها الاستبدادية والسوداوية والسادية.

- ظهرت وظيفة عميقة للرموز التي يتم تشكيلها عبر الميديا ووسائل الاعلام ومواقع التواصل، تحددت في كون تلك الرموز لا تقدم صورة حقيقية عن الأصل، حتى لو تمَّ تمثيل الأصل بكل وضوح، لأنه حتماً سيتمثَّل برمزية توحي أكثر من الحقيقة الفعلية للأصل؛ وذلك لأن هذا الأصل يتجسد أمام المتلقين، ويتم تصويره من جانب محدد يوحي بدلالات محددة أيضاً مرسوم لها بعناية فائقة من قبل المؤسسات المالكة لهذه الرموز والمنتجة لها، والممثلة لأيديولوجيتها.

الهوامش:

(١) النقد الثقافي "تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية" آرثر آيزابرجر، ترجمة: وفاء ابراهيم، ورمضان بسطاويسي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٢١٤.

(٢) داعش وA I C يحتكران الألوهية، (مقال) جون ريتش، (مجلة الجديد)، عدد٤، مايو/ أيار ٢٠١٥، لندن، ص٣٠.

(٣) تنعقد هذه الفكرة بناءً على نظرية بافلوف في التعلم القائمة على (المنبه والاستجابة)، ينظر في ذلك: اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها، د. نايف خرما، د. علي حجاج، سلسلة عالم المعرفة، رقم الكتاب ١٢٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٨، ص٥٦.

(٤) يرى " آرثر آيزابرجر" في ذلك أن التطور الكبير للتقنية الإلكترونية أدى إلى تحولات كبيرة في وظيفة الفنون التي أصبحت مرتبطة بالاعتبارات الاقتصادية والمسائل السياسية، فالفنان – مثلاً – لم يعد يبدع نتيجة رؤية داخلية، وإنما أصبح الفنان مسترشداً بالقبول الاجتماعي، أو بأذواق المتلقين. فالأفلام من هذا المنظور أيضاً، لم تعد مجرد فن للتسلية، وإنما أصبحت مرتبطة بالحركات الجماهيرية السياسية، وتُستَخدَم كذلك كأدوات في المعركة الأيديولوجية. ينظر: النقد الثقافي، آرثر آيزابرجر، مصدر سابق، ص١١٢.

(٥) يموت في العالم نحو ٨٠٠ ألف شخص منتحراً كلّ عام، أي بمعدّل شخص كل ٤٠ ثانية. هذا ما أكدته منظمة الصحة العالمية التابعة لهيئة الأمم المتحدّة، التي تعتبر الانتحار أحد أهم الأسباب المؤدية إلى الوفاة في فئة الشباب بين ١٥ و٢٩ سنة. وعلى الرغم من أن معدلات الانتحار بشكل عام منخفضة عربياً، غير أن بعض الدول العربية تأتي في مراكز متقدّمة من الدول المسجلة لأعلى حالات الانتحار في العالم، كالسودان= التي تقارب نسبة الانتحار فيها نسبة قارّة آسيا كاملةً. ينظر: مجلة رصيف ٢٢ الإلكترونية١٠/٩/٢٠١٦.
.https://raseef22.com/lif

(٦) مثل رواية (فرانكشتاين في بغداد) لأحمد سعداوي، ورواية (قيامة بغداد) لعالية طالب...وغيرها.

(٧)تركيب المجتمع السوري " رؤية اسلامية مبكرة لحل الإشكال، العرقي، الطائفي، الحزبي، في سوريا" (مقال) د. محمد المبارك، مجلة " الراصد" سلسلة الكترونية شهرية متخصصة، عدد ٣٥، جمادي الأولى، ١٤٢٧هـ.

(٨) ينظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، المجلد الخامس،

دار صادر، بيروت. وينظر أيضاً: مختار الصحاح، محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الرازي، دار الرسالة الكويت، مادة: رمز.

(٩) ينظر: من الرمز والعنف إلى ممارسة العنف الرمزي، قراءة في الوظيفة البيداغوجية للعنف الرمزي في التربية المدرسية، (بحث) أ.د علي أسعد وطفة، مجلة شؤون اجتماعية، عدد ١٠٤، شتاء ٢٠٠٩، السنة ٢٦، كلية التربية/ جامعة الكويت، ص٧٧.

(١٠) ينظر: المصدر نفسه، ص ٥٢.

(١١) ينظر: الرمز والسلطة، بيير بورديو، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط٣، ٢٠٠٧، ص ٥١.

(١٢) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(١٣) هي وكالة حكومية تابعة لوزارة العدل الأمريكية، وتعمل كوكالة استخبارات داخلية، وقوة لتطبيق القانون، تأسست عام ١٩٠٨ تحت اسم مكتب التحقيقات، وتم تغييره إلى الاسم الحالي عام ١٩٣٥، حسب ما نشرته الموسوعة الحرة "ويكيبيديا".

(١٤) ينظر: من الرمز والعنف إلى ممارسة العنف الرمزي، ص ٥٧.

(1) Narratology Introduction to the Theory of Narrative : Mieke Bal , Third edition , Toronto , 2009 , P 136 .

(١٦) Ipd , 138 .

(١٧) Ipd ,138 .

(١٨) يُنظر: الثقافة التلفزيونية "سقوط النخبة وبروز الشعبي" ، المركز الثقافي العربي، عبد الله الغذامي، ط٢، ٢٠٠٥، الدار البيضاء، ص ٥-٧ .

(١٩) للاستزادة ينظر على سبيل المثال لا الحصر: وينظر أيضاً: اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها، د. نايف خرما، د. علي حجاج، سلسلة عالم المعرفة، رقم الكتاب ١٢٦، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٨٨، ص٥٥. يُنظر: محاضرات في اللسانيات التطبيقية (بحث) لطفي بو قربة، جامعة بشار، الجزائر، ص ١١. وينظر أيضاً: نظريات التعلم والتعليم، أ.د. محمد عبد القادر عبد الغفار، ٢٠٠٨، مكتبة النهضة المصرية، ص ٩.

(٢٠) يُنظر: النقد الثقافي منطلقات وتطبيقات، آرثر آيزابرجر، ترجمة:، ص١٠٧.

(٢١) يُنظر: المصدر نفسه، ص١٠٧.

(٢٢) مصطلح الفتشية السلعية "Commodity Fetishism "Commodity" يقوم على فكرة الاعتقاد بأن شيئاً ما له خاصية سحرية، تقوم على مبدأ الابدال للرغبة الجنسية من شخص إلى شيء ما، وهذا الاعتقاد أستخدمه ماركس لنقد المجتمعات البرجوازية،

أما (هوج Haug) فقد نظر إلى المنتجات والسلع الاستهلاكية بأنها قد صُمِّمَت كي تُثير في المتفرج رغبة الامتلاك والدافع إلى الشراء. ينظر: النقد الثقافي، مصدر سابق، ص ٩٤-٩٥.

(٢٣) من أوائل أولئك الباحثين (Williams) الذي يُعد أول من وظَّفَ هذا المفهوم وأطلق عليه مصطلح التشبّع "saturate" ليصف به مفهوم الهيمنة والسيطرة غير المعلنة على الشعوب والجماعات التابعة. يُنظر في ذلك: النقد الثقافي "تمهيد مبدئي للمفاهيم الرئيسية" ، آرثر ايزابرجر، ترجمة وفاء ابراهيم و رمضان بسطاويسي، المشروع القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٠٩.

(٢٤) ينظر: أثر استخدام شبكات التواصل الالكتروني على العلاقات الاجتماعية "الفيس بوك وتويتر نموذجاً"، حنان بنت شعشوع الشهري، جامعة الملك عبد العزيز، ٢٠١٢م، ص٨٨.

(٢٥) ينظر: أخطر ما في النت غرف الدردشة، عقيل العقيل، مجلة الفرقان، ١٤/٣/ ٢٠١١، forqan.net,www.al .

(٢٦) ينظر: قضايا التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث، عواطف عبد الرحمن، سلسلة عالم المعرفة، رقم ٧٨، الكويت، ١٩٨٤، ص٥١.

(٢٧) ينظر: المصدر نفسه، ص٤٧.